إلى أبي

المحتويات

المقدّمة ١٣

القسم الأوّل: **الموت المستور**

تيو ١٧
منى ٢٩
فاطمة ٤٥
أمّ حسن الشجاع ٦٩
أمّ طارق ٨٩
أمّ جورج ١٠٩

القسم الثاني: **السّخافة البطوليّة**

بيروت ١٣٣
دلال ١٥١
بيروت، الحبّ ١٦٧
... وتيو؟ ١٧٣

الخاتمة ١٨٩

الشكر ١٩٣

«لـــو بــقــي الـــرجـــل بــتــولاً
لمـــــا أعـــــطـــــى ثمـــــارًا،
فحتى يستحيل أرضًا خصبة،
حــريٌّ به أن يصير امــرأة.
ومــا أنبل من كلمة امــرأة
تنسب إلى الــنــفــس...»

المعلّم إكهرت، معاهدات ومواعظ

يعيد هذا الكتاب رسم تاريخ وثائقي أعدَّه فريق لبناني صيف العام ١٩٩١، في لبنان، حتى يتمّ عرضه في برنامج «المبعوث الخاصّ» لمصلحة قناة «فرانس ٢» الفرنسية التي كانت سابقًا «آنتين ٢».

يحاول الباحث فهم هؤلاء النساء والأمّهات اللبنانيّات اللواتي يعشن أنوثتهنّ من خلال الحرب، ويبحثن في ذواتهنّ من خلال التسامي الميتافيزيقي، أو الجنون، عن سبيلٍ للفرار من واقع لا يُحتمَل ألا وهو موت عنيف لشخص عزيز.

يتخبَّط مخرج الفيلم، الشاب تيو، في شكوك وتناقضات كثيرة من ناحية الحب الذي يكنُّه لوالدته، إلا أنّه برفقة مساعدته في كتابة السيناريو، ناديا، ينطلق في رحلة نحو الهاوية، في ما يشبه طريقًا نحو الأمومة.

لا تشكّل هذه الصفحات تقريرًا عن الأحداث المعيوشة الحسّاسة والمعيّنة، ودراسةً خاصةً بالإثنيّات المحدَّدة فحسب، وإنّما هي بحث أوّلي لأنّها تفتيش عن الحبّ، حبّ الأمّهات وحبّ الأبناء.

بيروت، ٥ كانون الثاني/ يناير ١٩٩٢

المقدّمة

في البدء، كانت الأرض.

في البدء، كانت الأمّ.

وولدت الأرض السماء التي ستغطّيها لاحقًا. والسماء أنجبت الآلهة كافة.

واستحكم الشقاق رمزيًا بين الأرض والسماء تمامًا كما يتناقض العنصر الراكد مع العنصر الفعّال. فالأرض هي الطبيعة الكثيفة، أمّا السّماء فهي الروح الأثيريّة؛ الأرض هي الظلمة، والسماء هي النور. ومن الظلمة والطبيعة الكثيفة وُلد النور والروح الأثيريّة.

إنطلقنا باحثَين مشبَّعَين بالموضوعيّة، ومسلَّحَين بالتقنيّة والعلم. إنطلقنا نؤمن بقوّتنا وحيادنا، سائرَين تحت أشعة الشمس الساطعة. وانجررنا تدريجًا إلى الدّفاع عن ذاتنا، ثمّ بدأ القلق ينتابنا حتّى شككنا بأنفسنا في نهاية المطاف. فليس بمقدور العلم أن يكون ضامنًا للمناعة في الظلّ حيث نتحرَّك، ظلّ الأمّ وظلّ الأرض. أمّهاتنا وأرضنا.

والأرض في البدء هي الخواء، وهي الهيولى والرحم الأصلي. والأرض أساس كلّ حياة، وفي ظلامها تتولَّد المنابع والمواد والمعادن. وهي القاعدة الحيوية التي تحمل الجذور كلها:

«نساؤكم حرثٌ لكم». (سورة البقرة، ٢٢٣)

ويجعل العنصر الفعّال هذا الحرث خصبًا. فتتهاوى على الأرض قطرات دم أدونيس، البطل المقتول، لتنبت عندئذٍ من الأرض ورودٌ وشقائقُ نعمان حمراء اللون كدمه.

وإن كانت الأرض هي البداية فإنّما هي أيضًا النهاية. فالإنسان من التراب وإلى التراب يعود كسائر الكائنات.

من هنا، الأرض ازدواجٌ متناقضٌ: هي الولادة والدمار، الحياة والموت، الخلاص والهلاك. الأرض أمّ الاحتمالات كلها.

وتشكّل الأرض البشريّة موطن تبلور الرغبات كلّها. فهي حلبة المعارك، وفضاء النزاعات. وهي ساحة الإزدواجيّة الفرديّة، ناهيك من أنّها الفسحة الماديّة التي تشهد عداوات الشعوب بعضها لبعض.

وتشكّل الأمّ موطن تبلور رغبات الإنسان كلها. فهي ساحة يعكس فيها ازدواجيّته. وهي الأساس الذي يتوق إليه، والذي يسعى إلى تدميره.

القسم الأوّل

الموت المستور

تيو

شقّت سيارة، تهتزّ بركّابها بلا انتظام، طريقها وسط الزحمة، يتبعها عن قرب باص يعجُّ بالفنيّين ومعدّات التصوير، على درب مترجرجة ما أبقت القذائف من إسفلتها المحترق سوى بقع متفرِّقة. كان الرجال في الباص يضحكون ويقهقهون على عكس راكبي السيّارة اللذين ما كانا ينبسان ببنت شَفَة: لا الشاب، الطافح بالحيوية عادةً، ولا السيّدة الناضجة الجالسة قربه. وكان صوت باربارا هاندريكس يصدح بأغنية «أحيانًا أشعر كطفل من دون أمّ»[1] فيلصق الركّاب إلى مقاعدهم، ويتدفّق من النوافذ إلى الرصيف.

وقتئذٍ، حين أعيا لبنان الجميع، وتتوارى حرب الخليج عن الأحداث، ويبدو أنّ حرب يوغسلافيا ستشتعل مجدَّدًا، ينطلق هذان الشاب والسيّدة، اللذان يجهلان الواحد الآخر، في عمل عن لبنان كرهان وتحدٍّ للذاكرة، لأنّ العنف يغيِّر مكانه من دون وجهه. وكانت الحرب، حربهما بالذات، تنذر بحرب الآخرين. كان لبنان

[1] أغنية *Sometimes I feel like a motherless child*.

لهما السدّ الأخير الصامد أمام لبننة أوروبا؛ فالأمر قد قُضيَ بالنسبة إلى يوغوسلافيا. وطالت هذه المتلازمة روسيا، وأرمينيا، وأذربيجان، وبوهيميا، وموراڤيا وسلوفاكيا، وشعوبًا أخرى من الشرق. ولمَ لا شعب الباسك في الغرب؟ فقد استفحلت العنصرية في كلّ مكان.

تجاهلا الإرهاب والصراعات التي يستخفّ بها الإعلام كثيرًا، ورغبا دخول لبنان آخر. وخطوا نحو العذاب، عذاب الأمّهات. فالألم يختبر نوعًا من الإستهواء المميت مسّ كليهما. فهل تحرّكهما الرغبة في استراق النظر، أم في سماع أنشودة المجد؟ وما كانت أي نسمة منعشة تهبُّ لتخفّف من قلق الشمس الساطعة الخانق.

كانت تنظر إلى تيو، المخرج الشاب الذي قصدها عارضًا عليها أن ترافقه في رحلة عبر لبنان «الأمّهات»، كما حدَّد لها. هو شاعرٌ يناشد عالِمة، يكاد يبلغ من العمر سبعة وعشرين عامًا، يتردَّدُ ذقنه كما فمه بين الصلابة المرتسمة أصلًا على وجهه وملامح الطفولة التي لم تختفِ بعد. ومن وراء نظّارته المستديرة، تُشعُّ حنانًا عينان عسليّتان، غريبتان، متفحِّصَتان. ويتربَّع أنف طفوليّ رفيع وسط وجهه الكبير ذي الجبين المسطّح والعريض. حيوية ملامحه جعلته مثيرًا للاهتمام أكثر من كونه جميلًا حقًّا. تعابير وجهه، غير الوقورة بتاتًا كانت تتغيَّر مع كل لحظة. إتّسمت بالحزن والفرح، وبالصبيانيّة والنضج، وبالجديّة أو بالسخريّة، وبحبّ التأمّل، وبالتسرّع أو بالتأنّي، ولكنّها كانت تطرح الأسئلة على الدوام. ويتناقض جسمه الضخم بكتفيه العريضتين ومشيته الواثقة وموقفه المندفع مع الدقائق الحسّاسة الّتي ترتسم على وجهه.

أمّا ناديا، فكانت على العكس، متحفِّظة في تعبيرها وتصرُّفها. لقد بلغت الأربعين من عمرها، وبدت شبه صارمة بوجهها العريض

الموسوم بقوّة، الذي ما رقَّ إلا عند الذقن، وذي الجبين العالي المقوّس تُبرزه تسريحةٌ تُرجع الشَعر إلى مؤخَّرة العنق. ويتفاوت أنفها المستقيم والنافذ مع نظرتها العميقة، الحسرى البصر قليلًا، والتي تندفع نحو النفوس والأشياء بنعومة رقيقة.

إفترقت السيّارتان وانتظم الإسفلت، فسارتا بحريّة أكبر وغابتا في نفق نهر الكلب الذي استهلك إغلاقه مواقع الإنقسامات في المعسكرين المسيحيّين[١]. رفع الشاب صوت الراديو فارتطمت موسيقى «أحيانًا أشعر كطفل من دون أمّ» بجدران النفق وارتدّت على الوجوه كنسمة تغلغلت في المسام.

وبقي تيو ناديا قلقين قلقًا متغايرًا، فهو يفكِّر في فيلمه، وهي في هذا العمل المجنون المتمثّل بفهم الأمّهات، والتماس الرؤية من نظرتهنّ. هل يجدر بها أن تكلّمه على الجحيم الذي يغامر فيه؟ لمَ وافقت إذًا على مرافقته مقايضةً مهنتها كمحلّلة نفسية بكاتبة سيناريو؟ كان هو متعلِّقًا بفكرة حبّ الأمّهات الحماسيّة، لأنّه يشعر بهنّ من خلال أمّه التي يعشقها. أمّا هي، الثاقبة الفكر، فكانت تعرف فعاليّة جبروتهنّ.

– هنا! هتف تيو الّذي استعاد حماسه واتّقاده، كلّي أمل بأن نكون محظوظَين. الحظّ إلى جانبنا. هذه إشارة.

لقد لاحظا، للتوّ، عند مخرج النّفق، تحليقًا مرتعشًا لطيور النورس النّابضة بالحياة، إلّا أنّها كانت قد اختفت وراء الأفق...

---

[١] شكّل النفق خط تماس في بداية صراعات العام ١٩٩٠ بين الميليشيات المسيحيّة وجيش الجنرال عون.

وبقيت ناديا صامتة. ورافقهما البحر، مثل بحيرة هادئة وعميقة، البحر المتوسّط، امتداد هذه الأرض. أما هو وفي قرارة نفسه، فكان مطروبًا ومفتونًا وواثقًا من عمله المحدَّد بمصيره الذي يقرأه في كفّ يده. أليس كشف ألم الكائنات انتهاكًا للحرمات؟ لم تكن واثقة من الأمر، فهي أيضًا امرأة، وهي أيضًا أمّ، وتتوجَّس جرح المستقبل. لكنّ لبنان، حسبها، هو من يفوز في تلك المعضلة التي تتجابه فيها حميميتها مع فتور العالم.

إنطلقا إذًا جنبًا إلى جنب، هو مهنته التكلُّم، وهي إلتزام الصّمت. تسير هي بخطى متأنّية، وهو مندفعًا إلى الأمام دومًا. ربّما انطلقا نحو الأسى والتّفاني، ولا بدّ لهما من مواجهة القوّة والمسؤوليّة.

كان البلد الأخضر يشرق بهدوء وسط الأصقاع الصحراوية الجشعة المحيطة به. بزغ الفجر ولم تكن السّاعة الخامسة قد حلّت، فبدا ذهبًا مصقولًا يتراءى كصورة النفس للأقمار الصناعية التي تصوّره. وعلى الرّغم من ذلك، ظهرت مناطق الصّراع والمدافع بأفواهها المفتوحة جهارًا كمستنقعات صغيرة. وبدا الموت تافهًا في نظر العلم تمامًا كما في نظر أولئك الذين أصبح الموت خبزهم اليومي. ومع ذلك، كنّ هنا: نساء يُشبهن الجزر العائمة في وسط اللامبالاة، يُشبهن هذه الأرض، ويخفين في ذواتهن قصة خضوع.

قدمن عند الفجر، رمز الاحتمالات كلها وعلامة الوعود جميعها. تقدّمن بالمئات عبر غابات الصنوبر الشاسعة، تُبحر أجسادهنّ السّوداء في سديم الصّباح المزرقّ والمخنوق والممزّق. توقّفن وانحنين وانتحبن، ثمّ اتكأن على قبور أبنائهنّ منهكات القوى.

وتدفّق صراخ مخنوق من صدر، ومن آخر، وأيضًا من آخر. انتشر الصّراخ وتضخَّم وارتدَّ. فلفّ مخروطٌ من الأصوات الغريبة مقبرةً كبيرةً وتعالى حتّى وصل إلى السّماء صخبًا رهيبًا. تحتفي الأمّهات بيوم الموتى، الأضحى، ذكرى تضحية إبراهيم بابنه إسحاق إحياءً لذكرى الأبناء الّذين أرسلهم آباؤهم إلى الحرب.

تهلَّل تيو، لقد أمسك بأحد أطراف فيلمه الوثائقي. إلّا أنّ الأمّهات اللّواتي غلبهنّ الحياء أخفضن رؤوسهنّ عند اقتراب الكاميرا منهنّ. وتجرَّأ بعضهنّ وطلب منه تصوير ابنه. ابنه؟ حفنة من التراب! شعر تيو بالقلق يغمره أمام قوّة هؤلاء النّساء في تحويل الأموات أحياءً، فجدَّ في العثور على عدد منهنَّ قدمن لمشاهدة العرض وتذوّق طعم الأسى، أو على الأقل أوفدهنّ حزبهنّ السياسي إلى المكان. وجد مطلبه! فصوّرهنّ. كان عدد النّساء اللّواتي لا يبكين بصدق قليلًا جدًّا ما جعلهنّ غير منسجمات مع الآخرين. راودته فكرة خاطفة عن عنف مقترف بحقّ سر الأرواح. فظًا كان كلّ شيء. فكّر أنّ الشفقة أسوأ من الإباحيّة. ولكن كان يجدر به أن يتمالك نفسه، ويستمدّ قوّته من مهنة تجرّه وتثير حماسته على الرّغم من كلّ شيء.

اقترب من ناديا وقال لها بصوت منخفض:

– أموات، لقد لاقى مئتا ألف شخص حتفهم في ستة عشر عام حربٍ[1]. وتمّ تسجيل ألفي وستمئة وستة عشر ألفًا بين مفقودين ولاجئين ومنفيّين، وأكثر من ثمانين ألف معوَّق.

وتمّ ما تمّ. تجوّلت كاميرته بين اللواتي على قيد الحياة وأمواتهنَّ،

[1] بدأت حرب لبنان في ١٣ نيسان/أبريل العام ١٩٧٥ واتّخذت مظاهر متعدّدة.

تسترعيها صلاة، وتعكس دمعة، وتلتقط السأم خصوصًا. ومع ذلك، شعر بالسعادة لأنّه ترك ناديا تتدبَّر أمرها مع الأرقام الّتي رماها بها.

وكانت ناديا تشعر بثقل القدر تمامًا مثل الأوشحة السوداء الطويلة الملقية على الأكتاف المحدودبة. وأبعد من الكراهيّة، الوحشيّة أحيانًا، ما خلّفت الحرب في نفوس هؤلاء الأمّهات إلا تعبًا مضنيًّا، وعذابًا حائرًا.

ضجّت المقبرة الرحبة بصمت ما انفكّ يتكثَّف. تسمَّر الضباب والسّماء والنساء. وحدهم المصوّرون تحرّكوا. وما عادت الأجساد المتمدِّدة على البلاط موجودة إلا من خلال اتّحادها الصامت الّذي جمعها مع مثيلاتها تحت التراب حتى الانصهار الكامل. وتمرّ الحياة، مثل موجة دوَّارة بين الأموات والأحياء. وينفخ الأبناء، بفضل القدرة التي لهم كأبناء، روحهم في أولئك اللواتي منحنهم الحياة. كيف سينقل الفيلم هذا التأثير المتبادل؟ كيف سيستطلع الهاوية؟ والهوّة التكافلية؟ لا يعلم تيو، ولكنّه كان يصوّر، يصوّر كطفل سعيد على الرغم من آلامه المبرِّحة في مواجهة المحظور.

إزاء بذل الذات هذا حتى التلاشي شعرت ناديا بالعجز. كيف يمكن للمرء أن يكون أمًا إلى هذه الدرجة؟ رغبت في أن تثور وتصرخ في وجه غائية الزهد والتّخدر المستعصي. ولكنّها صمتت فظَّة، جامعة في ذاتها، مهنتها كمحلّلة نفسية حتى تفهم من دون المشاركة، وتشارك من دون الإنصهار. وحتّى تكافح العواطف الّتي كانت تجتاحها، فكّرت بأنّ أولئك النّساء كنّ استئثاريّات ورهيبات في الموت تمامًا كما في الحياة.

كشفت الشمس عن نفسها كرةً هائلةً. إنتهت طقوس الفجر

المؤثِّر. ذهبن، الواحدة تلو الأخرى، يبحثن عن منازلهنّ. فتخلّت كاميرا تيو عن الأقفية المعذّبة وتعلّقت بالمشهد المشرق المفعم بشفافيّة مشعّة وبسحب حالمةٍ. وسرعان ما سيلتفّ فريقه حوله فيعطيهم أوامره، ويطلق نكتة، وينفض الغبار عمَّا تبقى من المأساة. تهتزّ المدافن المكتظّة بالشواهد والورود لجذل الرجال الذين انفجروا ضاحكين جميعهم، فرحين بالحياة... هؤلاء الأبناء الذين تذرف الدّموع عليهم وهم يضحكون.

سأل تيو فنِّيَّ الصوت:

– هشام! هل الصّوت جيّدٌ؟

أجاب هشام بنعم، ثمّ أعاد لفّ البكرة فارتفع صوت لا جدوى منه، صوت لا طائل منه بتاتًا وغير نافع لأنّهن كنّ قد غادرن جميعًا:

«قيل لي إنّه لن يعود أبدًا. فكّروا إذًا في حرقتي في تلك اللّحظة ودائمًا!»

فقال تيو، هذا جيّد، توقّف! مثاليّ هذا الحرق العميق الّذي يقوم مقام الحياة.

ظلٌّ عابر تقدّم بخجل، منحنيًا بعض الشيء، إنها أمٌّ. أتت تزيّن بالورود قبرًا. لِمَ لم تكن حاضرة ساعة الإحتفالية مع الأخريات؟ بالغريزة، أعطى تيو أوامره، وسار صوبها.

– قيل لي إنّ ابني مات. عذَّبني الألم وكنت لأيّام أتقبّل التعازي. وهذه الأمور كأنها المخدِّر، وكانت فكرة غيابه تشقّ طريقها إلى داخلي. عندما... بعد شهرين من دفنه عاد حيًّا!

– لِمَ أتيت إذًا؟ لذعها تيو ليجعلها تشعر بالذنب.

– أفكّر غالبًا بالجثّة الّتي دفنتها، وتبحث عنها أمّ.

من إذًا سيروي قصّة شرود أمّ؟ خطرت على بال تيو فكرة مجنونة تتمثّل بإيجاد هذه الأم، فحثّه اندفاعه إلى البدء بطرح الأسئلة على المرأة.

– اتركها وشأنها، قاطعته ناديا بعنف.

فابتعد أخيرًا، مدركًا أنّها لم تحاول حتّى تحديد هويّة الجثة.

– هل تعرفين، قال تيو، أنّ اليوم الّذي تتوقّف فيه هؤلاء النّساء عن البكاء، سيخسرن أبناءهنّ إلى الأبد. وهذا ما شرحته لي والدتي. فليس الألم وحده من يدفعهنّ إلى البكاء، وإنّما حاجتهنّ إلى تذكّرهم أيضًا.

كان مسرورًا بهذه الإجابة ناهيك من إظهاره لناديا أنّه يفهم التّفاصيل المرتبطة بأغراض الألم النسائي من دون تخلّيه عن الفسحة الضرورية للحفاظ على الموضوعيّة.

قاومت هؤلاء النّسوة اللّواتي يعشن على شكواهنّ ستة عشر عامًا من الحرب، حربٌ لم تكن دائمًا مشابهة لحروب الآخرين. هي تشابك سقيم للوقائع، فسيفساء تكتّلات سياسيّة صغيرة تتحالف تارةً ويناصب بعضها العداء لبعض تارة أخرى، لأنّ الرّجال غالبًا ما يغيّرون تحالفاتهم. بيد أن النساء بقيبت صلبةً في عملها كما في عقيدتها. كانت ناديا تعرف ذلك ولكنّها ترفض الإعلان عنه.

– لا بدّ من تأليف نصٍّ وأسلوب: ما بعد الموت، تستمرّ الحياة طالما بقي الحبّ... استأنف تيو الكلام.

– في هذا المعنى، أجابت ناديا بسخرية في موقف دفاعيّ، لأنّ نهاية الحبّ هي وحدها الفناء، أو حتّى: لا تريد أمّهات لبنان تصديق موت ابنهنّ.

لاحظَ موقفها الدّفاعي ولكنّه لم يظهر شيئًا وقال بنبرة شبه طبيعيّة:

– هو أمر مثير جدًا ومبكٍ، إنسَي الموضوع. وأضاف بعدما نفد صبره فجأة: هيّا لنرحل، فما تبقّى شيء هنا.

كانت السيّارة تقطع الكيلومترات، وكان يثرثر ولا يتعب، ويقود بالرشاقة التي له في كل ما يفعله. أما هي فلا تتكلّم البتة. فسألها تيو قلقًا قليلًا من صمتها:

– بمَ تفكّرين؟

– أفكّر في هذا الكائن المميّز الّذي أنتمي إليه والمدعو «الأمّ»، أهو قوة أو ضعف؟

ترمز الأمّ، الوالدة، في أحلك السّاعات إلى الأمان اليوميّ. كانت تغسل، تكوي، تطبخ، ولا تمسّها القذائف. تجابه عنف الرجال بقوّة الإستمرار المذهلة. تثبتُ في مكانها، معادلة ذاتها، هي ذاتها. من أين تغرف قوّتها الّتي تتاخم المازوشيّة؟ تفوُّقها في نكران الذات؟ التفاهة البطوليّة إن وجب تسميتها. ولكن، هل هي وحدها هذه القوة المتلقيّة فحسب؟ كان تيو يشكُّ في هذا.

وقال:

– في مكان ما، الأمهات مسؤولات، فهنَّ من ربّين هؤلاء الرجال الذين يسيرون نحو الموت. يسهل كثيرًا الكلام على الضعف.

فكّرت ناديا أنّه يسهل أيضًا كثيرًا تبرئة الرّجال. وبعد لحظات سألت:

– قل لي تيو، لمَ تعدّ فيلمًا عن الأمّ؟

– لمَ وافقتِ على مرافقتي؟ لقد شرحت لك الأمر مسبقًا...

– كلا، ليس هذا التّفسير، يا تيو، إنّي أسألك عن دافعك الحقيقي.

عدّل تيو موسيقى باربارا هاندريكس، وركّز على الطريق، وعلى ذاته. طالت الدّقائق وتباطأت. وبدأت صور تتعاقب على الإسفلت. إمرأة شابة وجميلة وأطفالٌ. أمّه، وهو هائمٌ في بحر من الحنان. إمتنع تيو، الذَّرِب اللسان عادةً، عن الكلام، ضنينًا حتّى على نفسه، إذ كان يفكّر مليًا بالمرأة الجالسة إلى جانبه، ويتفحَّص قوّتها. هي تشتعل ذكاءً، بالتأكيد، ولكنها في الأساس هي أمٌّ. وأخيرًا تجرَّأ وقال:

– كانت أمّي ولا تزال تحبّني حبًا غير مشروطٍ.

وأضاف بسرعة:

– مع ذلك، أتساءل ما علاقة أمّي بهؤلاء النّساء كافة. لا أستطيع أن أجمع بينهنَّ.

غير مشروط! يا للتّعبير الرهيب! أصابها في الصميم. إهتزّت ناديا كما لو أنّها تتلقّى ضربات عنيفة من طفل لم يولد بعد. وذهبا يبحثان معًا عن الحبّ المطلق، حبّ الأمّهات، وربّما الأبناء كتحيّة أخيرة قبل الحرّية.

بغية تبديد الإزعاج الثقيل الذي قد يستقرُّ بينهما، إستأنف تيو الكلام بطريقة إعلاميّة فقال:

– أنتنّ قويّات جدًا، هذا ما تعلنه الإحصائيات بكل وضوح. إنّ الأمّهات يقاومنَ الانهيارات العصبيّة خلال الأزمات أكثر من الرّجال.

– يقاتل الرجال أو يختبئون، ولا بدّ للأمّهات من ضمان بقاء الأسرة، أوضحت ناديا.

تعجّب تيو قائلًا:

– لقد ضَمَنّ ذلك، ولكنّهنّ استفدنَ أيضًا! كنّ وصيًّات على العرش، وصيًّات فحسب. إلا أنّهنّ نصَّبن أنفسهنّ ملكات في المآسي الأكثر دمويّة. إعترفي بأنّ الأمل لم يكن واردًا لَكُنّ أنتنّ الشرقيّات الخاضعات على حدّ قولكنّ.

لم تتكلَّف ناديا عناء الإجابة.

اليوم، بعد ستة عشر عامًا من التحمّل والإيمان والقوّة، إنهارت اللواتي صَمَدْنَ حتّى آخر رمق إذ أصبحن عرضة للأزمات القلبيّة والانهيارات العصبية. لقد ناضلنَ طالما كنَّ يشعرنَ بأنّهن مفيدات. لقد ذبِلن يوم تركهنّ أبناءهنّ فما عدن يملكن ما يستحقّ الخسارة.

لمَ وافَقت على مرافقة هذا الإبن الذي يبحث عن الأمّهات؟ كانت ناديا تحلّل نفسها. فهي ما كانت تملك قصّة خاصَّة، ولحسن الحظّ لا خسارة تأسف عليها. فهي بكل بساطة عاشت ستة عشر عامًا من الحرب، ولا من أمر يثير الشفقة. أرادت أن تقاوم، أرادت أن تعيش لبنان مباشرةً. أربكتها هؤلاء النساء اللواتي لا يعشن لبنان إلَّا عبر أمومتهنّ. إلى تعلّقها بالأرض تُضاف طقوس المقبرة... «لأنّ نهاية الحبّ هي وحدها الفناء».

كلا، فكّرت مصمّمة، ليس هذا هو الجانب الوحيد الذي يبحث عنه، ونبحث عنه. من خلال الحبّ الأموميّ، يرغب في استكشاف قوّة المسؤوليّة، وغموض غير المشروط. لأنّ التناقض يكمن في جوهر العاطفة. إذا طلب مني مرافقته، فقد أراد مني فحسب أن أنقل للمرأة وللأمّ أنّني جزء من هذه المسؤوليّة.

لا تنسى ناديا أنّها تحت عباءة كاتبة السيناريو ترتدي رداء المحلّلة النفسيّة. سترافقه أينما ذهب، إلى لبنان الأمومة ولبنان

الهاوية. شعرت أنّ هذا فرض عليها حتّى لو لم تعرف كيف تصنّف ما شعرت به. بأيّ قوّة حبّ تكون الأمّ مسؤولةً عن مصير ابنها وتمزّق المجتمع وموت بلدٍ؟